«إن في طبيعة الفكر القدرة على استلام المعرفة الروحية من الأجسام المادية أو الروحية، ولكن بالنعمة وحدها تستلم وحي الروح القدس».

(القديس مكسيموس المعترف)

«ليست النعمة امرًا وهبه الله للخليقة كي تكمّل نواقصها أو ببساطة كي تبرّرها، أو لتزيد عليها شيئًا مخلوقًا خارقًا للطبيعة، بل هي الحياة الإلهية ذاتها».

(جان مايندورف، ترجمة المؤلف)

«هناك سرّ التلاقي بين الإله المحب والبشر، فإن رفضوا لا يتنزّل عليهم شيء من فوق، وإن ارتضوا فالرب يحلّ فيهم وفي أرضهم».

(المطران جورج (خضر))

# النِعَم الإلهية

المؤمن بالله ينظر إلى الأشياء التي من حوله ويراها هبات هابطة عليه من الحيّ القدير. هذه الهبات هي من الله وليست جوهر الله؛ إنها معه منذ الأزل؛ إنها انسكاب محبته فينا؛ إنها امتداده.

أما غير المؤمن فينسب هذه الهبات إلى مصادر كثيرة، هذا إذا جدّ في البحث، أو يكتفي بأن يتنعّم بها من دون شكرٍ. الفرق بين نظرة المؤمن بالله ونظرة غير المؤمن هو هذا الانتساب والولاء. المؤمن مُنتَسِب إلى مانح الحياة، أما غير المؤمن فهو مُنتَسِبٌ إلى لا شيء. من هنا يأتي معنى الإيمان مغزاه. إن المؤمن هو مَن أمَّن في الله ذاته التي ائتمنه عليها الله.

إن النِعَم الإلهية تغمر الجميع، «الله يُشرق شمسه على الجميع». وهناك من يغرف منها ويستضيء بها، وهناك من لا يُبالي، ويبقى بين العُمي. فالذي يغرف منها يغرف بشوق إلى أن يتبدّل، إلى أن يتحوّل وإلى أن يُغيِّر ما فيه. ولكن لكي يقدر أن يغرف ويمتلئ عليه أن يكون نظيفًا، خاليًا من أناه وبارًا. لأنه كيف للمرء أن يملأ ذاته وهو ملآن؟ فمن الذي يعيش فيّ؟ هل هو الأنا أم نعمة الله؟

إن لهذه الهبات قيمة جوهرية لدى المؤمن. إنه يراها تجلّيات مُتواصلة. إنها، بالنسبة إليه، انبساط الله إلى الأرض. فقد أسبغها الله عليه كي تقوم علاقة بين الله وأمينه. هذه العلاقة التي بناها الله والتي قد بدأها تنتظر من المؤمن أن يقول «نَعَم» لهذه النِعَم. لذلك، فالكون بما فيه هو وسيلة للمؤمن أن يستكشف الله ويستشفّ مقاصده. إنه وسيلة للتذوّق في الوقت والمكان، لما هو أبعد من الوقت والمكان؛ لما هو أبدي.

من هذا المنظار، من عين المؤمن، يُرى الخلق والخليقة رحلة تقديس وقداسة، مسيرة حج إلى حضن الخالق. هكذا هي الخليقة من الخالق نِعمة قد أسبغها على خلقه كي تكون أداة تواصل وتلاقٍ. المؤمن يكترث بهذه النِعَم ويُقدّرها؛ إنها قُدسات من القدّوس المُقدِّس للذي يقبلها ويقول لها «نَعَم» لها كي تُقدِّسه.

إذن، هذه النِعَم لها قيمة خاصّة لدى المؤمن. إنها هدايا للارتقاء وليس للامتطاء. إنها في جوهر حياته. عليه أن يعتني بها ويُخلص لها. إنها أمانة في عنقه. فاستعماله لها وعلاقته بها هي علاقة محبة، عشق

وولـه. إنها من الحبيب، لها دلالات حب ورسائل ودّ وتنوير. وعلى هذا الأساس عليه أن يتعامل مع الخليقة –الهبات، النِعَم، التجلّيات- معاملة حميمية بمحبة خالصة.

نِعَم الله هي لنا، من الله الفاطر ذاته، كي تعمل فينا فتحيينا. إننا نفطر عليها بعد أن تصوم ذواتنا من الأنا «فتتحوّل قلوبنا وأجسادنا اللحمية إلى قلوب وأجساد نورانية». وهكذا، كما أن النِعَم هي امتداد الله إلينا، كذلك نحن «بالنَعَم» ننجذب نحوه باسطين ذواتنا لاستقباله. «نَعَمُنا» لنِعَمِه قبول ورضى؛ إنها لقيا واتّحاد من دون امتزاج. وهكذا الخليقة تحيا بأمن وسلام مع المؤمن الأمين على أمانة الله وتجلّياته مُعيدًا إياها صلاة شكر وحمد.

فمتى نُصبح حقًا مؤمنين حتى «بنور الله نعاين النور»؟